الوباء الجارف

لو وُجد آدم وحواء منذ الفين وستين سنة فقط وتوالدوا من ذلك الحين وكانت زيادة اولادهم السنوية اي زيادة المواليد على الوفيات واحداً في المئة فقط لبلغ عدد نسلهم الآن ١٦٠٠٠ مليون (ستة عشر الف مليون) نفس كما هو عدد سكان المسكونة في هذا الوقت

ولو وجد في المسكونة عشرة نفوس فقط وقت ميلاد المسيح اي منذ الف وتسع مئة سنة لبلغ عددهم الآن ١٦٠٠٠ مليون نفس كما هو عدد سكان المسكونة الآن اذا كانت زيادة المواليد على الوفيات واحداً في المئة فقط

ولو وُجد فيها ٣٢٠٠ نفس في السنة الاولى من الهجرة النبوية اي منذ ١٣١٨ سنة لبلغ عددهم الآن ١٦٠٠٠ مليون نفس

ولو وُجد في الارض مليون نفس وقت ميلاد المسيح وكانت زيادتهم السنوية واحداً في المئة فقط لبلغ عددهم الآن مئة وستين مليون مليون نفس فاجتمع منهم في كل ميل مربع من الارض الصالحة للسكن اكثر من ثلاثة ملايين نفس حتى لو ارادوا النوم ما وجدوا في الارض مكاناً يسعهم

والمرجح ان سكان المسكونة لم يكونوا وقت الميلاد اقل من مئتي مليون من النفوس فلو زاد عددهم على ما تقدَّم لوجب ان يكون الآن في الميل المربع من الارض الصالحة للسكن ستمئة مليون نفس اي نحو بمضاعف سكان اوربا كلها فيصيب المتر المربع ٢٤٠ نفساً لو وقفوا عليه اربعةً اربعةً لغطوا الارض وارتفعوا عليها ١٢٠ قامةً

ومعلوم ان متوسط نمو الناس بالتوالد لم يزد الآن عمَّا كان عليه في السنين الغابرة بل نقص كثيراً كما يظهر من مقابلة مواليد بعض الممالك الاوربية الآن بمواليدها منذ مئة عام

ويُنتج من ذلك ان الذي منع نوع الانسان من ان يكثر ويملأ الارض هو كثرة الوفيات في الازمنة الغابرة لا بالموت العادي بل بالموت الذريع فلو كان معدَّل الوفيات في السنين الغابرة كما هو الآن لامتلأت الارض بسكانها منذ قرون كثيرة فالاوبئة الفتَّاكة والامراض القتالة والحروب والمجاعات هي التي ابقت نوع الانسان الى الآن وابقت لنا فسحةً من الارض نعيش فيها ولولاها ما استطاع هذا النوع ان يبقى في الارض اكثر من الفين وخمس مئة سنة من وجوده ذكراً وانثى الى حين امتلاء الارض به وتعذُّر معيشته فيها

واليد الطولى في حصد النفوس حتى لا تكثر وتملأ الارض للطاعون الجارف الذي انتاب نوع الانسان مرةً بعد اخرى في العصور الغابرة . ذكر ابن اياس في "تاريخ الدهور" ان

من حوادث سنة ٧٤٩ للهجرة " الفناء الذي وقع بالديار المصرية وعمّ سائر البلاد فكان يخرج من القاهرة في كل يوم ما ينيف على عشرين الف جنازة ومات في شهر شعبان ورمضان تسعمائة الف نفس ولم يسمع بمثل هذا الطاعون في ما تقدّم من الطواعين المشهورة في صدر الاسلام . قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبي ان الطواعين المشهورة في مبتدإ الاسلام خمسة وهي طاعون شيرويه وطاعون عمواس وكان في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ وقع بالشام واعمالها سنة ١٨ من الهجرة وطاعون الجارف وقع في زمن عبدالله بن الزبير سنة ٦٧ من الهجرة قيل مات فيهِ في ثلاثة ايام في كل يوم سبعون الفاً . وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط قيل انهُ ابتدأ بالعذارى الصغار فسمي طاعون الفتيات . وطاعون جاء في سنة احدى وثلاثين ومئة ويسمى طاعون قتيبة مات بهِ الف الف وستمائة وخمسون الفاً (١٦٥٠٠٠٠٠) . ولكن لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذي جاء في هذه السنة (سنة ٧٤٩ هجرية الموافقة ١٣٤٨ مسيحية) لانهُ عمّ البلاد قاطبةً ومات فيهِ من الناس من لا يحصى عددهم من مسلم وكافر وكانت قوة عملهِ في بلاد الفرنج واقام دائرًا في البلاد نحو سبع سنين حتى عزّت جميع البضائع لقلّة الجالب من البلاد وبلغ ثمن الراوية من الماء اثني عشر درهماً في القاهرة بسبب موت الجمال ولم يزرع من اراضي مصر تلك السنة الاّ القليل بسبب موت الفلاحين فوقع الغلاء وبيعت كل ويبة قمح بمئتي درهم وكادت مصر ان تخرب . ورفع الطعن ايضاً في القطط والكلاب والوحوش ولقد شوهد شيءٌ كثير من الوحوش وهي مطروحة في البراري وتحت ابطها الطواعين وكذلك الخيل والجمال والحمير وسائر الحيوان حتى الطيور مثل النعام وفي ذلك يقول الصلاح الصفدي

لمّا افترستَ صحابي يا عام تسع واربعينا
ما كنت والله تسعاً بل كنتَ سبعاً يقينا

وقال ايضاً

دارت من الطاعون كاس الفنا فالنفس من سكرتهِ طافحهْ
قد خالف الشرع واحكامهُ لانهُ يثبت بالرائحهْ

وقال الشيخ زين الدين ابن الوردي

يقولون شمّ الخل في زمن الوبا وفاقاً لما قال الاطباء يا خلّي
فان قلت للطاعون تسطو على الورى فقال نعم اسطو وانفكّ في الخلّ

وقال ابرهيم المعمار

قُبِّح الطاعون داهٍ فقدت فيهِ الاحبَّهْ
بيعت الانفس فيهِ كل انسانٍ بحبَّهْ

والَّف فيهِ ابن حجر كتاباً سماهُ بذل الماعون في اخبار الطاعون" . انتهى باختصار

والَّف ابو الفدا رسالة في هذا الطاعون قال فيها

" طاعون روَّع وامات وابتدأ خبرهُ من الظلمات . ما صين عنهُ الصين ولا منع منهُ حصنٌ حصين . سلَّ هنديًّا في الهند واشتدَّ على السند . وقبض بكفيهِ وشبك على بلاد ازبك . وكم قصم من ظهر في ما وراء النهر . ثم ارتفع ونجم وهجم على العجم . وقرم القرم ورمى الروم بحجر مضطرم . وجرَّ الجزائر الى قبرس والجزائر . ثم قهر خلقاً بالقاهرة وتنبَّهت عينهُ لمصر فاذا هم بالساهرة . الى ان قال

اسكندرية ذا الوبا سبع يمدُّ اليك ضبعَهْ
صبرًا لقسمتهِ التي تركت من السبعين سبعهْ

ثم يمَّم الصعيد الطيّب وابرق على برقة منهُ صيّب . وغزا غزه وعسقلان هزَّه . وعكَّ الى عكا واستشهد بالقدس وزكَّى . وصاد صيدا وكاد بيروت كيدًا . ثم صدَّ الرشق الى جهة دمشق . فتربَّع ثم وتمدَّد وفتك كل يوم بالف وازيد . ورمى حمص بجال وصرفها مع علمهِ ان فيها ثلاث علل . ثم طلَّق الكنَّة في حماه فبرد عاصيها من حماه "

وكما وصفهُ كتَّاب المشرق من اهالي مصر والشام وصفهُ كتَّاب المغرب من الافرنج فتواردت خواطرهم في الكلام عليهِ جدًّا وهزلاً

والظاهر ان هذا الوباء انتشر من احد مربعيهِ [1] في بلاد الصين وسار منهُ بطرق التجارة الثلاث الواحدة طريق خليج فارس الى البصرة فبغداد ومنها الى بلاد العرب ومصر وشمالي افريقية . والثانية طريق الهند الى افغانستان وجنوبي بحر قزوين والبحر الاسود وبر الاناضول . والثالثة طريق تركستان الى القرم والقسطنطينيَّة ومنها الى سائر البلدان الاوربية

وكان تجار جنوى والبندقية يدخلون البحر الاسود بسفنهم وينزلون حيث مدينة ثيودوسيا الآن ممَّا يلي مدخل بحر ازوف وهناك مرفأ امين فبنوا فيهِ مدينة حصينة سموها كفا . وغزا التتر هذه المدينة سنة ١٣٤٧ (٧٤٨ﻫ) وحصروها وضيَّقوا خناقها و بلغهم طاعون الصين حينئذٍ بطريقهِ الثالثة وفتك بهم فتكاً ذريعاً حتى كاد يفنيهم فجعلوا يقذفون موتاتهم بالمجانق الى المدينة

(١) يعلم للطاعون الآن خمسة مرابع او مواطن اثنان منها في بلاد الصين وواحد في بلاد الهند وواحد في بلاد العرب وواحد في افريقية

لكي يفعل الوباء باعدائهم ما فعل بهم . فكان كما ارادوا وفشا الوباء في المدينة فهجرها سكانها ونزلوا في سفنهم وحملوا العدوى معهم الى القسطنطينية وبلاد اليونان وايطاليا فانتشر فيها سريعاً انتشار النار في الهشيم ولم يحل عليه الحول حتى بلغ مرسيليا وانتشر في فرنسا واسبانيا وبلغ انكلترا ووصل في السنة التالية الى المانيا وروسيا وسكندينافيا وشمل اوربا كلها في اقل من اربع سنوات . ولم يذكر في تاريخ الانسان بليَّة عمَّت الدنيا كما عمَّها هذا الوباء او كان فتكها ذريعاً مثل فتكه وشرها وبيلاً مثل شره

وكان في السفن المشار اليها رجل اسمهُ ده مُسس عاد بها الى جنوى ووصف حال الوباء فقال " كنا الوفاً فلم يصل منا عشرة فبادر الاقارب والاصدقاء الى لقائنا ولكن ويل لنا فاننا اتينا معنا بسهام الموت المسنونة ونفثنا فيهم سم الهلاك بنفسنا " وقال انهُ مات اربعون الفاً من اهالي جنوى فلم يبقَ فيها سُبع سكانها ومات من اهالي البندقية مئة الف نفس ومن اهالي نابلي ستون الفاً ومن اهالي سينّا سبعون الفاً ومن اهالي فلورنسا مئة الف

وابلغ مَن وصف هذا الوباء من الاوربيين بكاشيو في كتابه المسمى دكامرون اي مئة قصَّة قال " كم من بيوت فاخرة ومن قصور مشيدة اقفرت من سكانها حتى لم يبقَ بها احد . كم من عيال انقرضت ومن اموال تركت لا وارث لها . كم من فتيان وفتيات في عنفوان الصبا وريعان الشباب لو رآهم جالينوس وبقراط واسكولابيوس في الصباح لقالوا انهم في اتم الصحة والعافية تغدوا مع اقاربهم وتعشوا مع الذين سيقومون الى الآخرة "

وتفشّى الوباء من مرسيليا في بلاد فرنسا ودخل اديرة الرهبان فلم يبقِ فيها ديّاراً وكان البابا في افنيون فدخلها وامات من اهلها ١٨٠٠ نفس في ثلاثة ايام ووصل الى باريس فقتل من اهلها اكثر من خمسين الفاً

ووصل الى انكلترا في اواسط سنة ١٣٤٨ وعاث فيها سنة كاملة وكان سكان لندن حينئذٍ ٤٥٠٠٠ نفس فامات عشرين الفاً منهم

والمظنون ان سكان اوربا كانوا قبل انتشاره مئة مليون نفس فمات به ربعهم اي خمسة وعشرون مليوناً . وقُدّر عدد من مات به في المسكونة كلها ثلاثة واربعين مليوناً ولعلهم اكثر من ذلك كثيراً وكان اشد فتكه في ايطاليا فمات به نصف سكانها

وتكرَّر انتشار الوباء بعد ذلك الى القرن السادس عشر فخفَّت وطأتهُ قليلاً حينئذٍ ثم اشتدَّت في القرن السابع عشر ولا سيما سنة ١٦١٩ فمات به في القطر المصري ٦٣٠ الفاً . وتكرر انتشاره سنة بعد سنة الى سنة ١٦٢٥ فمات به في القاهرة حينئذٍ اكثر من ٣٠٠٠٠٠

نفس وبلغ اوربا سنة ١٦٢٩ فمات بهِ مليون نفس من اهالي ايطاليا . وفتك باهالي ميلان فتكاً ذريعاً . ويقال ان اهاليها حسبوهُ ناتجاً عن سم يدسهُ الاشرار لغيرهم من الناس فجعلوا يقتلون كل من يشتبهون فيهِ . وقام بعضهم على بعض كالمجانين وكان سكان ميلان نحو ٢٥٠ الفاً فمات منهم ١٤٠ الفاً في قول و١٨٦ الفاً في قول آخر

ثم انتشر مراراً كثيرة بعد ذلك وفتك بمئات الالوف ولا سيما سنة ١٦٦٥ حين دخل مدينة لندن آخر مرة — اتاها من ازمير فعمل بها فعلاً ذريعاً كان سكانها خمس مئة الف فقتل منهم نحو سبعين الفاً وخرج منها ثلاثة آلاف جنازة في ليلة واحدة . وحُرقت لندن في السنة التالية ثم لم يعد يظهر فيها وافداً بعد ذلك لكنهُ انتشر في بقية اوربا ووصل الى بلاد النمسا فمات من اهالي فينَّا سبعين الفاً على قول ومئة واربعين الفاً على قول آخر وامتدَّ من فينا الى براغ فقتل ٨٣ الفاً من اهلها

وعاد الى الانتشار في بداءة القرن الثامن عشر قال الجبرتي في حوادث سنة ١١٢٥ هجرية (تعادل سنة ١٧١٣ مسيحية) حدث في القاهرة طاعون كان ابتداؤهُ في غرة ربيع الاول وتناقص في اواخر جمادى الآخرة ولم يزد على ذلك . ووصل هذا الطاعون من الشام الى مرسيليا سنة ١٧٢٠ وعاث فيها فبلغت وفياتهُ الفاً في اليوم وكان الناس يهربون من المطعونين هربهم من الاسد ويتركونهم بلا طعام ولا شراب او يدفعونهم الى بيوت يقيمون فيها ويرمون اليهم الخبز من كواها بآلات كالمجانق وبقي في المدينة خمسة عشر شهراً فقتل اربعين الفاً من اهلها و٨٨ الفاً من البلاد المجاورة لها . وهو الطاعون الاخير الذي دخل غربي اوربا الى ان ظهر حديثاً في بلاد البرتغال

ووصل الطاعون الى اميركا سنة ١٧٥٥ اوصلهُ اليها رجل ارمني فمات بهِ ٤٣٠٠ نفس من سكانها

ولما جاء بونابرت الى هذا القطر والقطر السوري كان الطاعون فاشياً فيهما وتردَّد عليهما وعلى البلاد المجاورة لهما حتى بلاد الروس مدة اربعين سنة

وما قيل في الطاعون يقال في الجدري والكوليرا ونحوهما من الامراض الوبائية . وفي وسائل القتل العديدة كالحروب والمجاعات والمسكرات فانها كلها تفتك بنوع الانسان وتمنع ازدياد السكان لكنَّ وطأتها خفَّت كثيراً في هذه الايام فلم يعد فتكها عشر معشار ما كان في السنين الغابرة ولا بدَّ من ان تمتلىء الارض بسكانها بعد قرون قليلة اذا لم يشع بينهم داء العقم الذي كثر الآن بين الشعوب الاوربية